زامر الحى

للأستاذ محمود تيمور

كنت وأنا فى أوج الصبا أسكن حى « درب سعادة » ، ذلك الحى العتيق الذى تتزاحم دوره ، ويتضايق طريقه ، حتى لكأن الدور على جانبيه توشك أن تتعانق

ولم يكن رواد هذا الحى كلهم من سكانه ، فمن بين أهليه طوائف من الناس تختلف إليه طرفى النهار وبعض الليل ، لا يكادون ينقطعون عنه فى يوم ، ولا يخفى عليهم من سكانه أحد ، أولئك هم الباعة الجوالون ، والعفاة من طلاب الصدقات ، وغيرهم من المرتزقة بفنون الملاهى وألوان التسلية وضروب الإضحاك والتفكيه

وقبيل الصيف ، أظلتنى أيام الامتحان ، فألزمتنى الدار أستذكر وأستوعب ، فإذا ثقلت على الوطأة ، ودار فى رأسى ، خرجت إلى البـاب أتخذ به مقعدا يشهدنى مواكب الطريق

وفيما أنا جالس ذات يوم ، صافحت سمعى رنات لحن حنون تبعثها صفارة من مكان قريب ، وما برحت هذه الرنات الشجية تتوارد على: مستأنية وضاحة ، حتى تجلى بها زامر الحى لم يكن لى به عهد

وجه ضامر عليه سماحة ، تزينه لحية خفيفة كساها الخضاب ، وزى على سذاجته بادى النظافة رائق الهندام ، ومشية وادعة مسترخية تتطلع فيها أنظار الرجل إلى السماء ، كأنها تستملى منها ما يستوى عليه النغم من إيقاع

وراعنى من لحن ذلك النـاى أنه كان حزين النبرة ، ينبض باللوعة ، وكأنه ينطوى على سر حبيس يحاول أن يصوره ، ولكن السر يأبى إلا أن يتسلل فى حنايا النغم ، كأنما هو نفثة مصدور

صادف هذا اللحن من نفسى هوى ، بل مس من قلبى الشغاف ، فجعلت أحرص على الجلوس ساعة الأصيل ، أرتقب صاحب الناى فى موعده المألوف ، فإذا مر بى الصوت وغاب عن سمعى الصدى ، أحسست بروحى تتبعه ، هائمة معه

وعلى مر الأصائل تم التعارف بينى وبين شيخ الناى ، أستوقفه بعض وقت ، وأدعوه إلى الجلوس بجانبى فى الأحايين

وكان كلانا يأنس بصاحبه ، يجاذبه ألوان الأحاديث ... أما هو فلا تفرغ له جعبة من الطرائف والنوادر والحكايات ، يحسن كيف يرويها بحلاوة الوصف ، شائقة العظة ؛ وأما أنا فلا أمل سؤاله في شأنه : كيف كانت أطوار حياته ، وأية آفاق تقاذفته ؟ فيجيبني إجابة المقل المكتوم ، يضن بالإفاضة ، ويتحرز من التصريح

ومما كنت التزمته في هذه الأيام التي أتأهب فيها للامتحان أن أؤدي الفرائض في أوقاتها لا أتهاون . وكان على مقربة من دارنا مسجد صغير أقصده طالبا صلاة الجماعة ، وحضر وقت المغرب وأنا بالباب أتحدث إلى شيخ الناي ، فدعوته معي إلى المسجد ، فتشرأب تائه النظر في كبد السماء وهو يقول مجمجما :

أعفني ...

ثم ألم نفسه يهم بالمضي عني ، وهو يقول قم لصلاتك .. إني ذاهب في سبيلي !

وهرول في مشيته تخفيه طيات الطريق ، فوقع تصرفه من نفسي موقع الغرابة ، واستربت بأمره ، ولكني شغلت عنه بإقامة الصلاة

وفي أمسية من الأماسي ، قفلت من المسجد بعد أداء فريضة المغرب إلى الدار ، فلمحت شيخ الناي يحوم حول بابها كأنه يتفقدني ، فأخذت بكتفه أبادره بقولي :

أنت هنا ؟ ... أطال انتظارك إياي ؟

— حضرت منذ قليل ، وأطلقت صوت الناي يدعوك

— كنت في المسجد ... لماذا لا أصادفك فيه ؟

فوجم الرجل ، واكفهر وجهه ، ثم رجفت شفتاه دون كلام ... فحدقت إليه أقول :

ماذا يقعد بك عن المسجد ؟

— المسجد ؟ المسجد ؟

واستبانت الرعشة في صوته وهو يقول : إنما الأطهار من عباد الله هم الذين يؤمون بيوت الله

وما علم أن استدار عني يتفتل ماضيا ، وهو يلوح لي مودعا بيده . فانقبضت نفسي مما رأيت ، وبلغت بي الحيرة في شأن الرجل كبير مبلغ ، وأقسمت لأعرفن من جلية أمره ما يخفى

ما بال صاحب الناي يتحدث عن الأطهار كأنهم من طينة غير طينته ، وكأنهم عجينة كانت غير شاكلته ؟ ومن الأطهار إن لم يكن من بينهم هذا الرجل الذي تنطق سماته وقسماته بالطيبة والصلاح ؟ ومن أولى بالصلاة من ذلك الذي يأكل لقمته من كسب حلال ، في عفة نفس ، وشرف سعي ، لا يشرك

الناس فى نقائص الناس ؟

ولبث صاحب الناى على حاله فترة من الزمن ، وهو لغز عصى يستغلق على ، وكأنما زادنى هذا الإبهام الذى يكتنفه إقبالا عليه ، وتعلقا به . ولكنى مع ذلك تهيبت أن أقتحم عليه سره ، خشية أن يضيق بى ، فينفر منى .

وتواصل الود بيننا ... أسبغ عليه من عطف ولطف ، وأبثه الحديث فى خاصة أمرى ، وأطلب مشورته فيما يساورنى من مشكلات دنياى . وهو يمحضنى النصح ، ويقدر ثقتى به ، ويكبر ما أستودعه من سرى ، حتى شرع يرفع الكلفة بينه وبينى

وكان فى الحين بعد الحين يسترسل فى إنشاد بعض الأهازيج الريفية التى تنطوى فيها لواعج الحب وتباريح الهيام . وكأن هذه الأناشيد تترجم بالكلام ما كان الناى يرسله من أنغام ... فإذا فرغ من إنشاده ، بعث من أعماق صدره تنهدات حارة ، وأفاض فى حديث عاطفى مشبوب ، يقص على ما يلقاه العاشقون من ضروب الوجد والحنين ، وما يعترض طريقهم من عقبات وأشواك ، وأنا أخالسه نظرات تستشف ما وراء تلك النفس المعذبة الحيرى !

وبينما كنت يوما جالسا إليه ، وقد ترنم بالغزل ، وقص على ما قص من مصارع العشاق : جذبت يده إلى ملاطفا ، وأنا أحدق فيه ، وعلى فى ابتسامة ، وقلت مباغتا فى صوت رفيق :

يبدو لقد كانت لك عصفورة .. عصفورة طارت من عشك !

فرعدت يد الرجل فى يدى ، وزوى بصره عنى ، وجمجم يقول :

عصفورة ؟ عش ؟ أية عصفورة ؟ وأى عش ؟

واستأنفت أقول :

يبدو لقد لوعك الحب ، وإن قلبك لينطوى على جرح دفين !

فأطرق يشد على يدى قائلا :

دعنى بربك دعنى .. خلنى وما بى ... إنه سرى !

ثم تغشاه الصمت هنيهة ، وأنظاره تسبح فى أعراض الأفق ، وإذا هو تدرج شفتاه ، رقيق الصوت ، حزين اللهجة ، كأنما يناجى نفسه .. يقول :

« .. يحكى أن .. يحكى أن فتى يدعى «مرجان» درج فى قرية تسمى «الشباريق» وكان أبوه الشيخ « محمد الرخ » إمام المسجد الكبير فى القرية يكفله منذ الطفولة وقد أحسن تنشئته وتربيته ، فعلمه القراءة والخط ، وأحفظه ما استطاع أن يحفظ من كتاب الله ، واستعان به فى خدمة المسجد

وأداء الأذان فى مواقيت الصلاة

شغف هذا الفتى منذ صباه برجل ينتسب إلى بعض الطرق الصوفية لا يخلو من لوثة ، أكبر همه التفنن فى صفارته ، وترديد الأذكار ليل نهار . فاتخذه الفتى أستاذاً له ، لقن منه فن الصفير ، وروى عنه الأغانى والترانيم

ويوماً ، والفتى فى نحو السابعة عشرة من عمره ، وقف على رأس الطريق ضحوة يرقب ، فإذا أخوه الإمام قادم بعد غيبة عن القرية نحو شهر .. وراع الفتى أن يرى أخاه قد اصطحب إحدى النساء منتقبة تكسوها الملاءة السوداء

من تكون ؟ إن امرأة أخيه قضت نحبها منذ أشهر قلائل ، وما كان لأخيه أن يصطحب من النساء إلا ذوات القربى ، وليس يلوح على هذه المرأة أنها من أهله ..

وبينا الفتى فى دهشته ، إذ دنا منه أخوه يرغب إليه فى أن يحمل عن صاحبته ما فى يدها من صرة المتاع ، وهو يقول له :

صافح زوج أخيك !

وعقدت البغتة لسان الفتى ، فمشى عاثر الخطا تتنازعه حيرة وفضول .. وهمهم يريد التحية ، ولا يدرى بأى قول نطق ، وما لبث أن تناول صرة المتاع مسرعاً إلى الدار

كانت عروس الإمام فى زهرة الصبا وضيئة الطلعة ، ما كاد الفتى يعايشها أياماً حتى أنس بها أنساً لم يحسه لأحد من قبل ، وكلما تقادم العهد جد من ألفة الفتى لها ما علأ نفسه هماً ، وبان له أخيراً على غير شك أنه يهواها ، وأن الهوى يدبيه ؛ فهاله الأمر واستنكر أن تكون له هذه العاطفة الأثيمة نحو زوج أخيه .. أخيه الذى هو فى مقام أبيه ، وولى نعمته فى عيشه كله

وعالج الفتى أن يرد عن قلبه ذلك الهوى المشئوم ، فحرص دوماً على ألا يخلو بزوج أخيه ، وتحاشى جاهداً أن يطارحها الحديث ، فكان كأنما ينفخ فى النار ، يزيدها من ضرام

ولم يجد بداً من أن يقبر فى أعماق نفسه سره الفاضح ، لا سلوى له إلا صفارة من قصب ، يودعها نفثات ملهوفة من صدره المقروح

وضاق الفتى ذرعاً بما كان يتحطاه من رعاية زوج أخيه له ، وبرها به . ولا سيما فى مغيب أخيه .. فإذا خصته بشىء من طريف ما تطهو من طعام ، تأبى أن يقربه ، متلمساً ألوان المعاذير ، وإذا تعللت ببعض الأسباب لإطالة حديثها معه ، تعمد اقتضاب الكلام ، بغية الإفلات

وذات يوم ، والشمس على أهبة الغروب كان الفتى خالياً بنفسه خلف الدار ، آخذاً

بصفارته يبثها نجواه ، وهو تائه الفكر هيمان ، فاستشعر على حين بغتة بأن خلوته يشوبها طارق . وما إن تلفت حوله حتى لمحت عينه « هنية » زوج أخيه تواريها كومة من حطب عن كثب ، وهى تدنو إليه فى سكينة وخشوع ، فتملكته رعشة ، ونهض من فوره يقول :

أنت هنا ؟

فأجابته فى صوت عطوف :

حضرت منذ قليل

فقال لها فى اضطراب :

ما ألى بك ؟

فكسرت عينها ، وهى تقول :

جذبنى صفيرك

ورآها تتهادى إليه حتى واجهته ، فتلقت قدماه ، يبغى هربا …

فأمسكت « هنية » بطرف كمه تقول :

ماذا يعجلك ؟ لتلبث قليلا …

فصاح الفتى صيحة مختنق ، وهو يدير عنها بصره ، وينحيها عنه بيده ، قائلا :

دعينى … دعينى …

فهمهمت تقول له فى مسكنة وانكسار :

ماذا يبعثك على كرهى ؟ ألم تضيق بى ؟

واستبدت بها نوبة من البكاء والنحيب ، فأحس الفتى شغاف قلبه يتهتك ، ورأسه تغلى مراجله ، واقترب منها يقول فى تلعثم :

أأنا أكرهك يا « هنية » ؟

فأشرعت إليه عينا تشرق بالدمع ، وفى نظراتها تعرف واستخبار ، فوقف حيالها يحكم أوصاله ، ويقهر عاطفته ، فإذا هى تلقى برأسها على صدره ، ويداها تتشبثان بمنكبيه ، وجفناها ينسدلان . وخيل إليه أنها توشك أن تتهاوى ، فألقى نفسه يطوقها بذراعيه ، وكانت بينهما فورة من تقبيل وعناق !

وانتبههما من نشوة الصبوة أصوات حملها النسيم من بعيد ، فتطلعت أعينهما هنا وهناك ، فاستبانت لهما على جسر الترعة أشباح سيرها وئيد ، فارتجفت « هنية » وهى تقول :

هذا أخوك فى صحبة بعض مستأجرى أرضه .

وقفزت تدخل الدار ، فاتخذ الفتى طريقه فى الحقول يطيل سيره ، وهو يحاول أن يراجع صحوه من سكرة تلك الساعة

وعاد الفتى إلى الدار ، فوافى أخاه جالسا إلى صينية الطعام ، وقد شرع يصيب عشاءه ، فلما وقع بصر الشيخ على أخيه ، صاح به وفى قوله رنة فرح واستبشار :

أين كنت ؟ ما أطيب الليلة ! … أقبل … أقبل …

فوقف الفتى حائرا لا ينبس ، وواصل الشيخ قوله متضاحكا :

سنة كلها خير وبركة ... لقد أجرنا الأرض الليلة بقيمة فاقت ما كنا نؤمل ... الحمد لله ... تعال خذ نصيبك معي من الطعام

فجلس الفتى إلى الصينية قبالة أخيه ، وطفق يأكل ، يده إلى فمه تلق باللقيمات وترجع إلى الصينية تصيب منها عودا على بدء ، وذلك على غير وعي منه ولا تيقظ ، عبثا يحاول أن يلم ما تشعث من فكره ، ويضبط ما اهتاج من أعصابه

وفي الفينة بعد الفينة تهل « هنية » على الحجرة بجديد من الصحاف تارة وبقلة الماء تارة ، وهي تسير مقتحمة الوجه ، مسترخية الجفنين ، لا تستطيع لخطوها وزنا

وما إن تقبل على الحجرة ، حتى ينكس الفتى رأسه ، ويمضي في الطعام متشاغلا به محلان ، ولم تكن « هنية » تلبث إلا ريثما تضع الأشياء في مواضعها ، وتعود أدراجها على الفور

أما زوجها الشيخ ، فكان منطلقا يثرثر في حديثه عن الإجارة ، وهو بما ظفر به مغتبط تياه

وبغتة ، والفتى منكب على صفحة طعامه ، على حول عمه كلمات أخيه لا يعي منها حرفا ، أزعجه من غفوته سقطة جسم في الحجرة ، وتحطم بعض الآنية . فالتفت يتعرف الأمر ، فإذا أخوه ينهض مسرعا إلى زوجه ، وقد تهاوت على الأرض ، وانزلقت من يدها الصحاف ، وسمع أخاه يقول :

ما بك يا « هنية » ؟

فاعتدلت المرأة تصلح شأنها ، وهي تهمهم :

لا شيء ... أصابني دوار !

وأنهضها الشيخ بين يديه ، وصحبها إلى مخدعها قائلا لها في تحنن :

استريحي قليلا ...

ولزمها حينا يعني بها ويلاطفها ، والفتى ما كث في مكانه يرقب ما يجري مخبول النظرات ، كأنه تمثال من حجر ، لا يملك لنفسه من حراك

ورجع الشيخ إلى مكانه من صينية الطعام يستأنف عشاءه ، وقال للفتى :

أجهدت المسكينة نفسها في أعمال الدار

ولما لم يبادله أخوه الحديث ، ممسكا عن الطعام ، أردف قائلا وقد رفع إليه بصره :

مالك لا تأكل ؟

فعالج الفتى أن يجيب ، وبعد لأي قال متحشرج الصوت ، يزيغ ببصره عن أخيه :

اكتفيت !

وأعجب ما كان من أمر الفتى أنه كان في هذه الساعة لا يطيق أن ينظر إلى أخيه ، وأن يتابع الحديث معه ... إنه ليجد في نفسه طارئا من الشعور بأنه يمقت أخاه ، وينكر عليه حظه من الحياة !

وهب واقفا يطلب الخروج ، فسمع الشيخ يقول له :

إلى أين ؟

— إلى المسجد ، لأغلق بابه ...

وأدبر عن الدار ، تقوده قدماه إلى البقعة التي كان فيها منذ قليل مع « هنية » يستمرئان متعة اللقاء ... وما هي إلا أن طاف ببصره يمنة ويسرة ، ثم انخرط في نشيج وبكاء ، وظل على حاله فترة ، وكأن روحه تذوب في مسيل الدموع !

ولا ينسى الفتى كيف قضى تلك الليلة السوداء ، فقد مرت به ساعاتها أرقا تتقاذفه الأركان والجدران ، خلف الدار ، فإذا غلبته إغفاءة تمثل له شبح أخيه الشيخ شائه الوجه ، تتلظى عيناه ، في يده يلتمع سيف المسجد الخشبي ، وما يلبث أن يهوى به على جسد الفتى في قساوة وضراوة يقطعه إربا إربا ، فيصحو الفتى مذعورا محموم الأوصال كأنما يريد أن ينسلخ من جلده

ولم تكد تنحسر عنه ظلمات الليل ، وتتضح جبينه أنداء السحر ، حتى سكنت سورته ، وغشيه سبات ثقيل ... فلما علا الضحا ، وأراد أن ينهض ، خانته قواه ، واستشعر الخور تملك عليه جسده كله ، فجلس إلى جذع من جذوع النخيل ، والفتور يتجاب عنه شيئا بعد شيء ، وفي الحين بعد الحين تسنح لخاطره بعض الصور ، فيثور عليه الضمير ، وتحزه ندامة

ونادى المؤذن لصلاة الظهر ، فلباه الفتى قاصدا المسجد ، وهناك وافق أخاه ، فسارع إليه يعتذر من التخلف بألوان من الأكاذيب ... وما عتم أن هبط على يد أخيه مرتشفا يقبلها غير مرة ، وهو يقول :

سأكون دائما طوع بنانك ، أبتغي مرضاتك ، فكن راضيا عني

فقال له الشيخ في حنان :

أنا راض عنك دائما ... هداك الله ، ووفقك للخير ، وعصمك من الشرور والآثام ...

فسما الفتى بعينيه إلى وجه أخيه ، فطالعته قسماته تتجلى فيها محبة وإخلاص ورضا

وأبى الفتى أن يريم المسجد بقية يومه فلما أسدلت العشية أستار الظلمة ، كان الفتى قد أقسم بينه وبين نفسه على أمر ، وعول على أن يبر بقسمه أبد الدهر لقد لطف الله به فيما جرى من ملاقاته الآثمة لزوج أخيه ولن يعود لمثلها ما بقيت فيه حياة

وتوالت على الفتى أيام قضى أكثر ساعاتها في المسجد ، يطيل الصلاة ، ويكثر التسبيح ، وكان لا يتوخى الدار إلا عند الضرورة القصوى ، تحضر من أجبه لا بد ... فأما « هنية » فكان لا يكلمها

إلا لماما فى اقتضاب ، متحاشيا أن تلتقى عيناها بعينيه ، أما مقارنته فقد هجرها فى مرمى بعيد ، لا يخشاها أغاشه العذاب !

وانقلب الفتى ناسكا وقور السمت صلب القسمات ، يريد نفسه على ألوان من التقشف والشظف ، ولكنه أدرك من أمره أنه كان سريع الذهول ، فطالما أخطأ فى صلاته ، وطالما شرد فكره وهو آخذ فى تسبيحاته ، فإذا هو تتراءى له أطياف لا يكاد يتبينها حتى ترتعد فرائصه ، وهو يهمهم :

إنه معها ... إنها له ...

ويرجع إليه ما غرب من صحوه ، فيضرب جبهته بيده ، هاويا على مسبحته ، يستغفر الله العظيم !

وتواردت الأيام على الفتى تدور به فى آفاق شتى ، يقبل على عبادته حينا ، وتلعب به الوساوس والتصورات حينا آخر ، وهو فى عامة أمره يجاهد نفسا باتت فريسة الحيرة والقلق !

وبينا يكون الفتى مطمئنا إلى أنه ملك زمام شعوره ، إذا به تنتابه روعة هتاف تتردد أصداؤه فى أعماق صدره ، فيدوى فى مسمعه صوت يقول

إنه معها ... إنها له !

ويخرج هائما على وجهه ، لا يعرف إلى قرار من سبيل

وذات عشية ، وقد جهدته نوازع نفسه الجياشة ، وطال به التطواف فى أطراف الحقول ، تحت جنح الليل ، ألقى نفسه بعد لأى تجاه المسجد ، فدخله فى استسلام ، واستلقى على الحصير يبيح لأوصاله أن تسترخى ، ولوعيه أن يغيب

وفيما هو على حاله تلك ، إذ شعر بيد تمس كتفه ، فرفع جفنيه يتبين فى ضوء القمر المنساب من الكوة ، وما هى إلا أن وثب مذعورا كأنما لسعته عقرب !

إنها « هنية » عينها ، زوج أخيه ، يلمحها فى تلك الساعة الواغلة فى صميم الليل ، وفى ذلك المكان الذى ليس فيه سواه

وسألها فى تلعثم :

فيم جئت ؟

— لم تحضر إلى الدار طوال يومك

— وما شأنك بى ؟

فتدانت منه تأخذ بكتفه وهى تقول مبهورة الأنفاس :

لم يبق لى صبر .. جئت لأراك فى خلوة

— أنسيت يا «هنية» أن لك زوجا هو أخى ... أنت له ... أنت له ...

— بل إنى لك دون سواك !

وتشبثت بصدره تتعالى تنهداتها وهى تقول :

لا تكن جافيا قاسى القلب ... ثم

ما كابدت لأجلك من عذاب !

وانتفض جثمان الفتى انتفاضة عارمة زلزلت كيانه ، وأوقدت فيه نارا حامية ، فدارت يداه على الفور بالمرأة تطوقها وتهصر عودها ، وهوى عليها يقبلها منهومة شفتاه ، وهو يردد فى أنفاس تتلاحق :

أنت لى … لى أنا وحدى !

ولبث الفتى مع هنية ساعة من ساعات الغرام العنيف … ساعة رائعة يستطيع الفتى أن يقسم لك غير حانث أنه قد أصاب فيها من النعيم ما لم يصبه أحد منذ خلقت الأرض … إنها فى حساب الزمن ساعة ، ولكنها فى الحق أحفل عنده بالمتعة والنشوة من أعمار طوال

نام الفتى وصاحبته متعانقين ، لا يمنعهما من الوجود شىء ، حتى لاحت فى الأفق تباشير الفجر ، ولم توقظهما إلا طرقات بالباب ، يتبعها صوت ينادى :

يا سرحان … افتح يا سرحان ..

فقالت المرأة للفتى فى همس راجف :

هذا أخوك …

وتواصل الطرق على الباب ، وتابع الصوت نداءه :

يا سرحان … افتح يا سرحان …

فوجد الفتى نفسه يجيب عالى الصوت :

سأفتح … سأفتح …

ولم تجد المرأة بدا من التسلل ، صاعدة إلى سطح المسجد ، على حين اتخذ الفتى طريقه إلى الباب يفتحه ، ودخل أخوه مقطب الجبين يقول :

أما زلت تنام فى المسجد يا سرحان ؟… أليست لنا دار تسعك ؟

… سرقتنى إغفاءة ، بعد صلاة العشاء فامتد بى النوم على الرغم منى …

وجلس الشيخ صامتا بعض وقت ، ثم استأنف يقول فى قلق :

لقد صحوت من نومى ، فلم أجد هنية فى الدار …

فقال الفتى مأخوذا يعانى التلفظ :

كيف ذلك ؟ أين ذهبت ؟

فقال الشيخ هين الصوت :

خرجت … أتكون قد ذهبت لتلازم الجرة ؟ أتكون فى بيت جارة لها تخبز ؟

فهمهم الفتى :

لا بد أن يكون ذلك ، لابد ..

وخلا الشيخ لنفسه صامتا هنيهة ، ثم نهض قائلا :

هلم إلى الصلاة يا سرحان

ومثل الفتى عن كثب من أخيه يركع ويسجد ، وكانت صلاة آثمة باركها الشيطان

وشرع الناس يتوافدون على بيت الله ، يؤدون له مكتوبة الصبح ، والفتى يقاسى

من حاله محنة عسراء، فما شهد أخاه يبارح المسجد حتى انسل صاعدا إلى السطح وهو يتلفت، وما كان أشد دهشته حينما ألفى السطح خاليا ليس فيه من إنسي. فطوف ببصره غير مصدق، وجعل يذرع السطح متأملا كل رقعة فيه، حتى كأنه اختبل
وانتهى به التطواف إلى حافة السطح خلف المسجد، وأفلتت منه نظرة إلى الأرض، فندت من حلقه صيحة مصعوق وسرعان ما ألفى نفسه ينحدر على الجدار، حتى بلغ مسقط هنية فإذا هي ملقاة تئن في خفوت، فأقبل عليها في هلع ولهف، وهو يسائلها:
ما بها؟
فحاولت أن تجيب في عناء:
لقد تحطمت يا سرحان ... تحطمت ...
وكانت تعض على شفتيها في عنف، لتكتم التأوه، فاحتضنها الفتى يواسيها، ولا يدري ماذا هو قائل؟ وماذا هو فاعل؟ سمعها تهمهم:
أوجاعي لا تطاق ... إني أموت!
وما وجد الفتى بدا من أن يحتملها في رعاية واحتراس، والأسى يمزق نياط قلبه ورأسه تتصارع فيه المخاوف
وانتحى بها بيت « أم عبد الجليل » وكانت مستودع سره، عطوفا عليه، وفية له، فأفضى إليها ببعض الأمر، وناط بها تدبير المخرج
فنهضت المرأة ناشطة إلى دار الشيخ تنهي إليه الخبر. وما أسرع أن نقلت هنية إلى دار زوجها تحوطها العناية والتعهد.
وأشاعت « أم عبد الجليل » أن هنية قدمت عليها قبيل الفجر لتخبز، وصعدت إلى سطح الدار، تجلب منه الوقود، فزلت بها القدم، وسقطت تلك السقطة الحاطمة
ومضى يومان، تكابد فيهما هنية آلاما مبرحة، والفتى عائذ بتلك البقعة الخالية وراء الدار، حيث ارتشف أول قطرة من غرامه المحرم، فكانت تنوبه ثورات تحتد به، حتى ينحي على شعره تقطيعا، وعلى جبهته لكما وجيعا، وهو يغمغم مختنق الصوت.
أنا الذي يجب أن يعذب ... أنا الذي يجب أن يموت!
وقضت هنية نحبها في الغداة، وشيعت جنازتها إلى جبانة القرية على النحو المألوف في عرف الريف
وتجلد الفتى أول الأمر، يكبت مشاعره في جهد، فقام بما وكل إليه من شأن المأتم ولكنه كان يؤدي عمله في تبلد ووجوم. وكثيرا ما تزدحم عليه التصورات والأخيلة فيحس كأنما هو يهوى من حالق، أو كأنما

هو تتخسف به الأرض

ويعد أيام عراء انقلاب ، فلم يعد يطيق اللبث فى مكان ، وإذا هو يهيم على وجهه فى المطارح النائية ، كأنه ثور انفلت من قيوده ، فهاج وماج

وأسلمه ذلك بعد حين إلى انهيار وخمول ولازم الدار أكثر وقته ، وهو يحاول جهد إمكانه أن يتجنب مواجهة أخيه ، فإذا التقيا على رغم منه وكره ، أحس كأنما أخوه يوشك أن يسائله :

كيف سولت له نفسه أن يفعل مافعل ؟

وعلى مر الأيام أحس الفتى بأن سره ينمو فى صدره ، ويكاد ينطق بجريرته الشوهاء ، وأن العيون من حوله تقول :

خذوه !

وكان إذا برح الدار ، تنقل فى أرجاء القرية ، متنكبا عن المسجد لايقربه ، فجاءه أخوه ذات يوم يسائله :

فيم تخلفه عن بيت الله ؟

فلم يجد الفتى مندوحة من الذهاب إليه ومعاودة القيام بعمله فيه ... وفيما كان يدرج ويجئ ، تمثل له مشاهد ليلته التى قضاها مع هنية فيه ، فينقبض صدره ، وتغيم عيناه ، وتنهشه الأفكار السود

ولما جن به الليل فى المسجد ، أحس الخوف يدب فى أوصاله ، ويتسرب فى كيانه ولكأن أشباحا مفزعة تدف حواليه ، وهمسا داعيا يطن فى أذنيه

وما كاد المسجد يخلو من قصاده ، حتى عمد إلى الباب ليوصده ، وبينما هو فى طريقه إليه استشعر خفق أقدام فوق سقف المسجد فأرهف السمع ، وانتابه وجيب دموب ، فألفى نفسه يهرع إلى السطح صاعدا ، وتراءى له على الحافة طيف يتردد ، فأقبل نحوه ، فانهوى الطيف دفعة ، ورن فى أذن الفتى وقع سقطته ، وتتابعت إليه أناته تتوجع . فانحدر الفتى على الجدار ليبلغ مسقط الطيف ، فإذا هو فى البقعة التى احتوت هنية منذ أيام جسد ملقى بين فى خفوت

وحوم الفتى بعينيه على حذر وتخوف يبحث عن الطيف ، فلم يجد له من أثر . وما إن خطا خطوة حتى صادف أخاه الشيخ قادما من جانب المسجد ، فروعت مرآه ، وما عتم الشيخ أن قال فى استنكار :

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ! . أنت هنا ! ... فيم بقاؤك فى الظلام ؟ !

ووجم الفتى واقفا يدور رأسه ، وتزيغ عيناه ، ويبدو ارتباكه واضطرابه ... واستأنف الأخ قائلا :

ماذا بك ؟ ما الذى تخفيه عنى ؟ تكلم

فساخ الفتى فى غير وعى :

لا تسألني ... لست مجيبك ... هذا قضاء الله !

فتعجب الأخ من قوله ، وتدانى منه يتفرس فيه ، فرده النأى عنه يصيح مخنوق الصوت :

لا تقربي ... لا تقربي !

وانطلق يهيم على وجهه كمن أصابته جنة ..

وكان هذا آخر عهده بأخيه ، وبقرية أهليه وتقاذفته البلاد على تنائي أطرافها ، يحيا حياة الطريد الشريد ، لا أنيس له ولا سمير إلا تلك السفارة الحنون

وها هو ذا يستقر به المطاف في هذه المدينة ، حيث تراه ! ...

* * *

ونكس امرؤ الحي رأسه ، وقد نال منه الجهد . قلت وقد شجاني حديثه :

لماذا لا يستغفر الخاطئ ربه ، مستأنفا تقواه ؟ إلى متى يتخلف عن بيت الله ؟

فرفع الرجل وجهه إلي ، وقد برقت الدموع في محجريه ، وهمهم :

أترى يغفر الله له ما قارف من إثم ؟

أترى ينفسح لمثله المسجد الطهور ؟

وما هي إلا أن اجتذب سفارته من صدره ، وانكب عليها يوقع لحنا رفيقا يتفطر من ضراعة وندامة وحنين !

محمود تيمور

مختارات من الأدب الفرنسي

شعر ونثر

مجموعة من أروع القصص القصيرة وأبلغ القصائد المختارة لصفوة من نوابغ كتاب فرنسا وشعرائها

تاريخ الأدب العربي

يؤرخ الأدب العربي من عصر الجاهلية إلى هذا العصر بأسلوب قوي ، وتحليل موجز ، واستيعاب مفصل ، واختيار موفق ومقارنة بين الأدب العربي والآداب الأخرى

للأستاذ أحمد حسن الزيات